

قلب دمشق مسجى ويمثلون به

يا فيروز.. لا يعني ختم الوالى؟!

وعد المهنا: (كلنا شركاء) 2008/2/23

أنا صوتي منك يا فيروز!

"صح النوم" لمن يا فيروز؟!

هل من أحد دخل في سبات سوانا، من منا ينام ويرغب أن يستيقظ؟!

ما من كلمة بعد تشعل الحرائق؟ هل ثمة شيء بعد ليحترق؟!

ونحن معك "نهواه بلا أمل" ومن هو؟!

قيل لي أنه عجوزٌ هائمٌ على وجهه الكالـح لم يعد الفطرُ يأتيه من بردى.

أنفهم الـ play back وأنفهم "أنا صوتي منك يا بردى" صوتك يا "عصفورة الساعات"

ونحن أحباؤك، منذورون أبداً للشمس وللطرقاـت، شهوؤ الإنسان.

قيل لي أنه الطفل اللقيط، وأهله أجراـة لمتعهدي الخراب، ومعقبي معاملات لسفارات، ممثليها

أحفاد شايـلوك، يغمرون حماة الإرث الثقافى بصناديق الويسكى والسيجار.

ألم يفدك نزار قباني حين قال لك "عفوك فيروز"؟!

ونحن، وكلماته ملصق على خيبة الشارع، أنى للياسمين أن يعرّش على أصابعنا اليوم؟!

أم أن الياسمين حليف أصابعه حتى القبر؟

يا قرنفل بيتك بلا سقف ودمشق القديمة يهبلون أسقفها على أهلها وينتقمون من أعمدة النور.

هل رأيت الحمام؟!

يطردونه من صحن الجامع الأموي إلى ساحة المسكية، التي هدمت في الثمانينات لتقرّ عين

السائح، ولتربى عين أطفالنا على المشهد المولود جرمياً، وقد كُنّا نؤمه صغاراً لنلهو مع الحمام

في صحن جامع أمية الكبير، وقد اكتفينا بالحمام شاهداً، على قدسيته وهو الأثر الأبرز في تراث

العالم بدمشق، الذي سجلناه بأيدينا على لائحة التراث العالمى عام 1979 ومن ثم ضقنا ذرعاً به

وبأهليه.

يا قرنفل يا حبيبتى هل شممت رائحة القرنفل في الفورسيزن، المخالفة المعمارية الصريحة

بدمشق، وقد كان كازينو دمشق يوماً، حينها سكن لجواره كشكٌ صغير لم يتوقف صوتك يا فيروز

عن الشدو يوماً من مذياعه المهترئ. لا يزل في أذني!

أم شممته في الطريق إلى (دمر - الهامة) وقد تلبس طلال حيدر (جيبوا حدا من دمر يدقق

وشم، جيبوا من الهامة، والوشم بن محمّص وهب الهوا شامي) فقد تاه القرنفل مع أهل كيوان الذين تاهوا عن مجرى بردى باستثمار خرافي، قبض فيه على غوطتهم الأخيرة هناك، وقبض على الهوا الشامي!؟

يا فيروز

هناك رائحة الخيبة، خيبتنا جميعاً، لا تبرح أنف الأرزة.

وها هنا رائحة " لا تبول هنا يا بن العاهرة " .

تقرأينها بجلو على جدارٍ كان يتكئ إليه أبو الدستور العثماني مدحت باشا.

يا قرنفل هلاً مررت لتقولي له " نعيماً مدحت باشا " فقد قصوا له وقاره وقد أزالوا قلنسوته

السوداء، سقف السوق الشهير، واستبدلوه بتوتياء المخالفات.

يا قرنفل يا عيوني التي لولاها ما اقتفيت آثاره على عتبة الصباح المدلهمة.

هل مررت بحامل مدحت باشا، الشارع المستقيم، عمود دمشق الفقري؟

قلب دمشق، دمشق القديمة، يلهو بكرسيه المتحرك من صُكَّتْ على جباههم الليرة، فلاترين ملامحاً

بل شبه إنسان يقتفي لحم الجردان، وقد فرغت من لقياه وهرعت من أفنية رومانية حطموها كانت

يوماً شاهداً على رقي المدينة، واليوم حطمو الشواهد لا بل وقطّعوا رحم نهر بانياس العابر تحت

جسد المدينة من قلعة دمشق حتى الشارع المستقيم وقد ظنوه مجرى للقاذورات فسدّوا فاهه

بالبيتون لتغرق محال حي "الحريقة"!

جسد المدينة القديمة مسجى يُمَثَّلُ به.

في الأمس القريب انهارت واجهات محال قرب الباب الشرقي للمدينة القديمة في حي "القشلة"،

التي تعني بالعربية تكنة الجنود الأتراك (الجندرما) وهي واجهة لبناء ذو تصميم معماري فريد

كان بيت القائمقام للكنة العثمانية، بناء يتيم بقي داخل المدينة القديمة المحصنة بأسوارها المتهالكة

بينما إدارتها منشغلة على مدار الساعة، تحصل الجزية.

بالله عليك يا فيروز، ومن هدم أيضاً بفحولة رأيه جامع الزهراء القائم على شارع مدحت باشا

ليستبدل اللبن والخشب والحجارة المنسية بوحش إسمنتي يبدو، لمن تبقى في عينيه نظر، قاعدة

بيتونية لصواريخ تعدنا بالوصول إلى القمر، يفرع من بقي على سلامة الحس بالمدينة الغضة.

عفوك فيروز هم أيضاً من سرقت ختم الوالي لأجلهم!

دعيني أؤدك إلى حماة التراث لا بل أقصيك عنهم فهم لا يستحقون حتى شتائنا ولا يستحقون إلا

ما نعتهم به موظفهم الحزاني " آلت مديرية الآثار والمتاحف إلى مزرعة "!

فبعض الوالي هناك، وقلة من يدعون أنهم مريدوه، حرّاس أختام فيليب العربي (جدي) وملوك إيبلا وماري ويمحاض (حلب، حتى شجرها ينزف اليوم) وعمريت (روحي وقبرها هناك) باعوها جميعها!

هذه الأختام لم تصلُ يدك يا قرنفل ولهذا ذهبوا إلى "صح النوم"!!
فمنهم من طردته الجامعة لاعتدائه على إحدى بنات شباب دمشق التي كتبت لهم يا قرنفل:
"ليل البارحة التقيت شباب دمشق الواعد، حضورهم وتفاعلهم وحسبهم اكد لي أن دمشق ليست فقط عاصمة ثقافية لهذا العام بل ستبقى قدوة الفن والثقافة والأصالة لأجيال..."

وختمت لهم محبتك يا فيروز.

هذا الفذ الذي كان يقود شباب دمشق الواعد إلى تحف هذه الأرض، لا في المتاحف، بل في مكتبه المغلق، وهذا معلمه المثقف الكبير يفده لساو باولو، ليكون ممثلاً لهم، ولعاصمة الثقافة هناك في البرازيل.

هذه الزمرة من حماة التراث، حسابها منه مفتوح، والفيزا أيضاً من واليها المجهول!!؟
أحدهم كان قد هددني بالقضاء في عقر عملي أمام من زمرة (كذا) وليته فعل، لأطرد الممل عن روحي القابعة في سجن كبير، وليت زعيم زبانيته الذي زار ذات العقر ليتطاول عليّ أمام شباب دمشق الواعد أصحاب السلطة الرابعة، وليردوا عليه:

"هل نأتيك بمن تشتم قبل أن يرتد إليك طرفك!" ومن يشتم؟! أنا الذي آثرت أن أصغي إليك يا فيروز مع فنجان قهوة الصباح المرّ.

هل نقول دمشق، وأنت سيدة من قال فيها، وقد ماتوا جميعاً، فمنهم من سكننا دهرًا لا يغادر، ومنهم من يجول في ظهر انينا، معماراً بئناً بعقد خبرة ليسجلوا له درات التراث على أنها غير أثرية أو عقد تراض للسان يسيل في كعبه الجديد، الذي لم يحسن السير فيه في شوارع دمشق وهم من اتفقوا جميعاً على أنه ما من شارعٍ معافى في دمشق ولا حتى رصيف!

عن أي والٍ تتحدثين يا فيروز وختم من سرقت!؟

عفوك إذا فشعوري كان قصياً أنك ها هنا في دمشق وتفصلني بالكاد عنك دقيقتين، وعن الباب الذي يقودني إليك لا شيء " وآه يا باب محفورٍ عمري فيه رح انظر واسميه باب العذاب، في باب غرقان بريحة الياسمين، في باب مشتاق في باب حزين في باب مهزوز أهله مستحيين " أولم تغني أنت يا فيروز آه الابواب! أو لم تغني يا قرنفل " هالأرض كلها بيوت يارب خليها مزينة ب ابواب ولا يحزن ولا بيت ولا يتسكر باب، ابواب ابواب شي غرب شي صحاب شي مسكر وناظر

تا يرجعوا الغياب "

فقد آلت أبواب قلب دمشق، دمشق القديمة، أبواباً للعذاب، عذاب من هجروهم في الظلام، وفي وضح النهار، هجروهم مرةً بفضةٍ رخيصة، ومرةً ببلدوزر مذلول أمامه صانعه، ومراتٍ ومراتٍ وكأنهم دابة الأرض التي التهمت عصا سليمان!

عمي "أبو سليمان" يردد دوماً: " إذا ساعدتك قدرتك على ظلم الناس، تذكر قدرة الله عليك!"

أه يا فيروز " لأول مرة ما كنا سوى "

والله، يا فيروز، تعبٌ مرهقٌ مريضٌ ترينه على وجوه عباده في قلب دمشق، وفي ظله كما صنفته اليونسكو منطقة الحماية (Buffer Zone) خارج السور، أي شارع الملك فيصل، حيث يترصدون الذباب فيه لينقضوا حالما يسنح به القادم من الأيام القليلة، وحالما قبر صلاح الدين الأيوبي ينتهون من إشادة مسرحةً أمام وقاره، وطالما لم يبق حجرٌ على أمه، على أخته، على ذاته، داخل السور، الملك فيصل يتأهب للذبح في عام الثقافة وقد كان لنا عام 2007 معهم جولةً من أجله لم ننتصر لقلب دمشق فيها، لأن حالنا بين ذراعيك يا فيروز، دون حال بيروت فلأخرس!

وقلب دمشق " عصفورة الساعات أهلها نذروها للشمس " أيضاً يا ستنا الكبيرة فيروز.

وما تجنب الزمان لفظنا لولا أنك زماننا، زمانٌ وصلتنا برحمه يا فيروز، مرةً جسراً للسماء لمن يشتهيها، ومرةً لمن مثلي اشتهاه حجراً مقدساً، يحطم وجوهنا في المرايا، نحتته الأيادي الذهبية بأصابع آلهة.

عفوك فيروز مبارك لهم من يرغبون بختم الوالي، لكن من يجيبني على سؤالي اليتيم

لماذا العالم كله يجهز على قلب دمشق؟!

ولا أستثني منهم أحدا

فما من وال سيقطع رأسي إذ أقول مع علي بن جهم، وقد قطع رأسه الخليفة

وإني لأفتح عيني حين أفتحها

على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا.

أما قلب دمشق، (دمشق القديمة) يقتلني، لكن بمحبةٍ غامرة.

هامش وحيد: الوالي هم المسؤولون عن تراث العالم في دمشق ومن يدعون ذلك أيضاً.

www.heartofdamascus.org